بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي السورة

سورة الحجرات سورة مدنية نزلت في العام التاسع للهجرة وهي كسائر سور القرآن المدني تعنى بالجانب التشريعي الذي ينظم جوانب الحياة في المجتمع المسلم؛ حتى تضمن له عوامل الاستقرار والازدهار، وتحميه من أسباب الفرقة والاختلاف .

وفي سورتنا هذه يرد التشريع الذي يتكفل بفض المنازعات التي قد تقع بين المؤمنين كما في قوله عز وجل: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات: ٩].

وسورة الحجرات سماها العلماء سورة الآداب وسورة الأخلاق؛ لأنها اشتملت على جملة من الآداب والتوجيهات الأخلاقية والتي تفردت بها هذه السورة فلم ترد في غيرها مثل: النهي عن التنابز بالألقاب والنهي عن التجسس والغيبة .

وعدد آيات سورة الحجرات (١٨) آية، وقد تكرر فيها نداء الله لعباده المؤمنين خمس مرات كان أولها في مفتتح السورة نفسها حيث بدأت السورة بقوله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ١] . وقد حذف المفعول للفعل ﴿ **تُقَدِّمُوا** ﴾، وذلك ليعم كل ما من شأنه أن يقدم بين يدي الله ورسوله كتقديم الرأي أو القول أو الفعل في أمر قد حكم فيه الله عز وجل أو حكم فيه رسوله ﷺ .

ولعلنا نلاحظ أن النهي الوارد في أول نداء للمؤمنين في السورة وهو قوله عز وجل: ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ يحدد للسورة اتجاهها ويرسم لها مسارها ويصبغ بقية النداءات في السورة بصبغته المتميزة وبصيغته الجامعة،

فالنداءات الأربعة من بعده تنبع من فيضه وتدور في فلكه .

فقوله عز وجل في النداء الثاني : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] ما هو إلا صورة من صور التقدم المنهي عنه في النداء الأول والذي ورد في أول السورة الكريمة .

وكذلك النداء الثالث وهو قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] فقبول خبر الفاسق دون تثبت وتمحيص وما يترتب على ذلك الاندفاع أو على تلك العجلة من « فعل » تكون عاقبته الحسرة والندامة ، لهو صورة أخرى من صور التقدم المحظور الذي بينته بداية السورة التي اشتملت على النداء الأول للمؤمنين .

وكذلك النداء الرابع وهو قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] . فالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب السيئة لهو صورة من صور التقدم وتعدي الحدود المنهي عنها في النداء الأول للمؤمنين .

وقل مثل ذلك في النداء الخامس والأخير في سورة الحجرات والذي ينهى المؤمنين عن إساءة الظن بإخوانهم المؤمنين وينهاهم أيضًا عن التجسس وعن الغيبة وكلها صور من صور التقدم وتجاوز الحد المسموح به والتي حذرت منه السورة في مطلعها من خلال ندائها الأول للمؤمنين .

إذن فالآية الأولى هي مفتاح السورة فهي كما رأينا من ناحية تبين لنا الحدود التي ينبغي لنا أن نقف عندها والتي لا يجوز لنا أن نتخطاها أو نتقدم عليها ، فأوامر الدين ونواهيه التي تحفظ للمجتمع تماسكه لها حرمة ينبغي ألا تنتهك وإلا تقوض هذا البنيان وانفرط عقده وانحلت عراه . كما أن آيات السورة والتي جاءت بعد النداء

الأول تبين لنا من ناحية أخرى العواقب الوخيمة التي تترتب على مخالفة النهي في قوله عز وجل في النداء الأول للمؤمنين: ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾

فرفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ يؤدي إلى حبوط الأعمال كما أن العمل بقول الفاسق يفضي إلى الندم ولكن بعد فوات الأوان ويكون سببًا أيضًا إلى الاقتتال وإراقة الدماء ، وكما أن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب يدخل المؤمن في دائرة الفسوق والظلم والعصيان ، وقل مثل ذلك في الظن السيئ والتجسس والغيبة فهي أيضًا تدخل المؤمن في دائرة الفسوق والإثم والعدوان ، كما أنها توهن من أواصر العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم وتفضي به إلى التصدع والانهيار .

كما أن المقصود بالنهي في قوله: ﴿ **لا تُقَدِّمُوا** ﴾ هو الوقوف عند حدود الله وعدم تخطيها والالتزام بأحكام الشرع وطاعة الله ورسوله ﷺ وعدم مخالفتهما في كل ما أمرا به ونهيا عنه وإلا حدث الخلط واللبس والتجاوز وما ينتج عن ذلك من الوقوع في الشبهات وانتهاك الحرمات. ومن هنا بينت الكلمة الأولى في النداء الأول للمؤمنين الحدود الفاصلة والحواجز التي ينبغي أن تراعى حتى لا يحدث خلط أو تداخل فالله عز وجل في قوله للمؤمنين: ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ ينبه كل مؤمن ألا يتجاوز حده وأن يعرف أنه عبد خاضع لربه وعليه أن يطيع أمره ونهيه لا هوى نفسه فهو تابع لا متبوع وهو عبد مأمور ليس له في نفسه حظ أو نصيب بل يُؤمر فيطيع ، ويُنهى فيستجيب .

فالآية الأولى توضح معالم الطريق وتصحح المفاهيم لمن اختلطت عليه الأمور ، وتبين مصدر التلقي ، فالعبد يتلقى أوامره من ربه ولا ينبغي له أن يعكس الأوضاع أو يقلب الأمور أو يخلط الأوراق . وقد جاء في آيات السورة ما يؤكد هذا المعنى الخطير ويقويه كما في قوله عز وجل: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** ﴾ [الحجرات: ٧] فالله عز وجل ما جعل رسوله ﷺ فيهم ليلقوا ما أتاهم به وراء ظهورهم أو ليحملوه ﷺ على أن يوافقهم في آرائهم أو ليتابعهم في

أهواء نفوسهم فهذا عكس لطبائع الأمور فإياكم أن تفعلوه . فالله ما جعل رسوله ﷺ فيهم إلا ليكون أمره مطاعًا بينهم ولتكون كلمته هو المسموعة لا ليرفعوا عليه أصواتهم ؛ لأنه لو أطاعهم في بعض المواقف كما يريدون لأصابهم العنت ولما استقامت أمور حياتهم .

ثم تعود الآيات في أواخر السورة لتقرر هذا المعنى مرة أخرى ولتضع الأمور في نصابها ولتصحح وتوضح المفاهيم بصورة قاطعة . فحين جاء وفد الأعراب إلى رسول الله ﷺ وادعوا أنهم مؤمنون لم يقرهم الله على ادعائهم هذا وكذبهم في قولهم الذي قالوه بألسنتهم ولم يكن له رصيد في قلوبهم وهو ما أشار الله إليه في قوله عز وجل : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٤] فهم ادعوا لأنفسهم مقامًا لم يبلغوه فؤدبوا في ذلك بسبب ما حدث منهم من بغي وعدوان وتجاوز .

وكذلك لما منّوا على الرسول ﷺ بأنهم أسلموا دون أن يقاتلوه كما فعل غيرهم ، فبين الله لهم أن الأمر بخلاف ما قالوه فإن لله المنة عليهم ولرسوله ﷺ وذلك في قوله عز وجل : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وبعد أن ادعوا أنهم وصلوا إلى مقام الإيمان أخذوا يفاخرون بذلك فبين الله لهم أنه لم يكن هناك ما يدعوهم إلى ذلك ، فالله عز وجل لا ينتظر حتى يقولوا قولهم هذا ليعلم أنهم كما يقولون ؛ فهو عز وجل يعلم ما في السموات وما في الأرض ولا يخفى عليه حقيقة أمرهم وبذلك صحح لهم مفاهيمهم الخاطئة وذلك في قوله عز وجل : ﴿ **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ١٦] .

وهكذا يبين الله لنا بقوله : ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ وبكلمة موجزة قوية وبنبرة عالية جلية وبعبارة جامعة قاطعة ـ خطورة التقدم والمخالفة والتعدي

وضرورة الالتزام والوقوف عند حدود الله وعند حجرات الرسول ﷺ وقد رمز إلىٰ ذلك بلفظ الحجرات والذي من أهميته سميت به السورة الكريمة .

ولذلك جمع الله بين لفظ «الحجرات» وبين لفظ «العقل» و«الصبر» فأصل كلمة «الحجرات» : من الحجارة ومن كلمة الحجر التي تعني المنع كما سنرىٰ عند تحليل الآيات ، وهي بذلك تلتقي مع معنىٰ كلمة العقل الذي يكف صاحبه عن فعل الشيء القبيح ، وتلتقي كذلك مع معنىٰ كلمة «الصبر» الذي يمنع من تحلىٰ به من اتباع الهوىٰ وتعدي الحدود أو تجاوز المعقول ، وهذه الألفاظ وتلك المعاني قد جمع الله بينها في قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ٤، ٥] .

وسنربط بإذن الله بين هذه الكلمات الثلاث (الحجرات ، العقل ، الصبر) وبين كلمة «الرشد» و«الصدق» اللتين وردتا في السورة بعد ذلك في قوله عز وجل : ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات : ٧] ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] ثم نربط ذلك كله بكلمة «التقوىٰ» والتي وردت في أول آية من السورة ثم تكررت في كثير من الآيات بعد ذلك وسنرىٰ من خلال هذا الربط أن هذه الكلمات التي يجمعها معنىٰ واحد تشترك فيه ومن ثم يتبين لنا الرباط الذي يشد آيات السورة بعضها إلىٰ بعض ويتبين لنا الإعجاز في هذه السورة الغراء والله الهادي إلىٰ سواء الصراط .

وأيضًا سنرىٰ هذا التوزيع المحكم لمشتقات كلمة «التقوىٰ» بين ثنايا الآيات في السورة الكريمة والتي توِّجت بقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] . فقد وردت كلمة التقوىٰ بمشتقاتها خمس مرات في السورة وهو نفس عدد مرات النداء من الله لعباده المؤمنين والتي نهاهم فيها عن مخالفات حددها لهم في آيات السورة لتتبين لنا الأمور التي ينبغي علينا «اتقاؤها» ؛ لنبلغ درجة «الإكرام» عند الله في دار السلام والتي لا يبلغها إلا الأتقياء جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١] .

لا تقدموا الرأي على الوحي

أي: لا تعجلوا بقضاء أمر من الأمور حتى تعلموا قضاء الله وحكم رسوله ﷺ فيه؛ فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فإذا علمتم ذلك فاحملوا أنفسكم على الالتزام والاتباع حتى لو كان في أمر يشق على النفس ولها فيه حظ، فخالفوا هواها واحذروا غضب الله عز وجل فهو سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم، ولذا علل الأمر بالتقوى في قوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بقوله بعدها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وإنما ذكر لفظ الجلالة (الله) في قوله: ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾؛ تعظيمًا لشأن الرسول ﷺ فطاعته من طاعة الله عز وجل، ولعلك تلاحظ ورود اسم الجلالة في هذه الآية التي افتتحت بها سورة الحجرات ثلاث مرات بالرغم من قلة ألفاظها وهو ما يعرف بالإظهار بدلاً من الإضمار وإنما كان ذلك من أجل تربية المهابة وخشية الله في قلوب عباده المؤمنين وليحملهم ذلك على امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ ليسعدوا في دنياهم وليكونوا في الآخرة من الفائزين .

ونلاحظ أن مفعول ﴿ تُقَدِّمُوا ﴾ قد حذف من السياق الكريم وذلك ليعم كل ما من شأنه أن يقدم بين يدي الله ورسوله من قول أو فعل أو رأي يكون مخالفًا لحكم الشرع الحنيف . فقد نهوا أن يقطعوا بحكم يخالف حكمه ﷺ أو يعترضوا على رأيه بل ينبغي عليهم الطاعة الكاملة والاتباع المطلق وإن خفيت عليهم علة الحكم أو غاب عنهم وجه الحكمة فيه فهو لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه فهو رسول مبلغ عن ربه ولذا

قال: ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . كما أنه بدأ الآية بنداء الإيمان: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: يا من آمنتم بالله ربًا وبمحمد ﷺ مرسلاً من عند ربه اعلموا أن مقتضى الإيمان هو التسليم التام دون تردد أو جدال أو ارتياب .

وقد قرئ قوله: ﴿ لا تُقَدِّمُوا ﴾ أيضًا بفتح التاء وفتح الدال وتشديدها (لا تَقَدَّموا) وهي قراءة سبعية وأصلها (لا تتقدموا) لكن حذفت إحدى التاءين لتخفيف نطق الكلمة . فالقراءة الأولى ﴿ لا تُقَدِّمُوا ﴾ من التقديم أي تقديم هوى النفس أو إبداء الرأي بحيث يكون ذلك مخالفًا لحكم الشرع كما في قوله: ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] فقد نهوا عن ذلك .

والقراءة الأخرى: (لا تَقَدَّموا) من التقدم والتعجل والسبق فقد نهوا أن يسبقوه ﷺ بالقول أو الفعل ، بل عليهم الانتظار حتى يحكم هو ثم يرضوا بما حكم ويسلموا تسليمًا كما في قوله عز وجل في شأن الملائكة الأطهار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨] فلا ينبغي للعبد أن يسبق مولاه بقول أو بعرض أمر أو يتقدمه في السير فلا ينبغي للسيد أن يُسبق أو يُعصى .

ولذلك بعد النهي الوارد في أول الآية ﴿ لا تُقَدِّمُوا ﴾ جاء الأمر في نهايتها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، فالتقوى هي اتباع الأوامر وترك النواهي أو بعبارة أخرى هي طاعة الله ورسوله وعدم العصيان أو المخالفة . وأصل التقوى هي خشية الله عز وجل والتي تحمل صاحبها على فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه .

وكلا القراءتين متقاربتان في المعنى وتقوي إحداهما الأخرى . فكل كلمة قرآنية تجسد المعنى في صورة حسية كأننا نراها رأي العين . فمثلاً قوله عز وجل في سورة الحجرات: ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ يجسد لنا صورة شخص يتجسس ويتلصص ويتتبع عورات الناس . كما أن قوله: ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ حينما نقرؤه تتبادر إلى ذهننا تلك الصورة المنفرة لشخص ينهش ويأكل من لحم أخيه بعد موته .

وكذلك قوله : ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يصوّر لنا صورة أناس يندفعون ويتسابقون نحو الهاوية كالفراش الذي يهوي في اتجاه نار محرقة ولا يدري أن في ذلك هلاكًا له ، أو تصوّر لنا صورة أناس يهرولون نحو منحدرخطير وأنت تحاول أن تأخذ بحجزهم أو تقلل من اندفاعهم وهم يتفلتون منك وأنت مشفق عليهم من سوء العاقبة والمآل . أو تصوّر لنا صورة رجل يسوق سيارته بسرعة أكثر بكثير من السرعة المحددة بينما تناديه أنت بأعلى صوتك أن يلتزم بالسرعة المقررة وألا يتعدى أو يتجاوز الحد المسموح به على الطريق وتقول له : على رسلك . تمهل ولا تتعجل وهو سادر في غيه لا يعيرك اهتمامًا أو يُلْقي إليك بالاً إذ لا يشعر بسوء المصير الذي أوشك على التردي فيه .

ويعضد هذا المعنى الذي جاء في صدر الآية ما جاء في عجزها وهو قوله عز وجل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فهو يزيد الصورة جلاءً ووضوحًا . فالإنسان المتقي إذا تصورت حاله وهو يتقي بيديه ما حوله من أخطار ويدفع عن نفسه ما يأتيه من مضار إنما هو إنسان متحفظ ينظر إلى موقع قدميه قبل أن يخطو أو يتحرك فهو إنسان لا يندفع أو يتسرع بل يتأنى ويتريث ، ولا يتعجل أو يتهور ، بل يحتاط ويفكر ويراجع نفسه ويتراجع إذا لزم الأمر . فالسلامة لا يعدلها شيء فهو يشبه إنسانًا يسلك طريقًا فيه أشواك وألغام فهو فيه على حذر وتوقٍّ حتى يخرج منه سالمًا دون أن يُمس بسوء أو يُصاب بمكروه .

ومن ثم يبرز المعنى عن طريق التضاد بين كلمتي «التقدم» و«التقوى» ، فالتقدم فيه انتشار واتساع وتعجل وجرأة واندفاع وفيه انتفاش وانتفاخ بينما التقوى على النقيض من ذلك فيها تروٍّ واتزان وانكماش وانقباض ، كما أن التقدم عاقبته دمار وهلاك بينما التقوى عاقبتها فوز ونجاة وصدق الله عز وجل إذ يقول في «سورة الحجرات» : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] فالعاقبة حقًا للمتقين .

الصد عن البيت الحرام

ولكن قد يسأل سائل: متى وأين حدث هذا التقدم أو وقع هذا التجاوز أو التعدي للحدود والحواجز التي أمرنا الله أن نقف عندها ولا نتخطاها؟ لأنه لا يعقل أن ينهاهم عن شيء لم يفعلوه!

والجـــواب: أنه قد حدث هذا التقدم والتجاوز بالفعل أثناء صلح الحديبية في أواخر العام السادس للهجرة النبوية والذي جاء ذكره بالتفصيل في سورة «الفتح» وهي السورة التي سبقت سورة «الحجرات» في ترتيب المصحف والتي جاءت سورة «الحجرات» كالتعقيب على ما وقع فيها من أحداث.

فقد اعترض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على بعض بنود الصلح الذي أجراه الرسول ﷺ مع قريش ولم يمتثلوا أمره ﷺ حين أمرهم أن يتحللوا من إحرامهم ويذبحوا هديهم وأعلن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اعتراضه على بنود الصلح والتي تنص على عقد هدنة لوقف الحرب مع كفار قريش وعلى أن يعود المسلمون دون أن يعتمروا وأن يؤدوا عمرتهم في العام القادم فقد رأى الصحابة في قبول تلك الشروط المجحفة والمتعنتة مذلةً ومهانةً أن تصدهم قريش وهم قاب قوسين من البيت.

كبُر ذلك في صدور الصحابة ولم تحتمله نفوسهم وخفيت عليهم الحكمة في فعل الرسول ﷺ فقد أراد أن يحقن الدماء أن تُراق في البيت الحرام ولاسيما بعد أن خلأت ناقته في الحديبية وامتنعت عن الحركة والمسير فقد حبسها حابس الفيل فحتى الحيوان يعرف أن للبيت حرمة لاينبغي أن تنتهك أو تستباح بل تحفظ وتصان فعلم عندئذ أن الله لم يأذن لهم بدخول مكة والطواف بالبيت هذا العام ولكن لا بأس من أن يفاوض قريشًا وينتزع منها صلحًا لا يقل خطرًا وأهمية عن دخول مكة لأداء العمرة هذا العام.

ولذا أخبر أصحابه بعد أن خلأت ناقته أنه سيقبل أي خطة تعرضها عليه قريش فيها تعظيم لحرمات البيت . وقد أثبتت الأحداث والأيام بُعدَ نظره ﷺ وأن هذا الصلح كان في مصلحة الدعوة فقد أدىٰ إلىٰ انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ولذا مهد هذا الصلح لفتح مكة في العام الثامن للهجرة بعد أن نقضت قريش بنود العقد ، فالذين دخلوا في الإسلام بعد صلح الحديبية كانوا أضعاف مَن دخلوه خلال السنوات السابقة عليه .

فقد عاملت قريش المسلمين معاملةَ الندِّ للند وقبلت الدخول في مفاوضات مباشرة معهم وفي هذا اعتراف صريح بكيان المسلمين ودولتهم مما قوىٰ شوكتهم ومهابتهم في قلوب الناس وكان له أبلغ الأثر في دخولهم في الإسلام ومن أجل ذلك سماه الله فتحًا مبينًا كما ورد في صدر سورة «الفتح» ، وندم عمر بن الخطاب علىٰ ما كان منه من اعتراض وجدال وعلم الصحابة أن رأي رسول الله ﷺ هو خير لهم من رأيهم لأنفسهم ولو أنه أطاعهم فيما تهوىٰ أنفسهم لأصابهم عنت شديد ولكن الله لطف بهم وأنزل السكينة في قلوبهم وثبتهم وأقالهم من عثرتهم وجعلهم يثوبون إلىٰ رشدهم وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم بفضله ونعمته من الراشدين كما بينت ذلك سورة «الحجرات» .

فتحللوا من إحرامهم ونحروا هديهم لما رأوه ﷺ يفعل ذلك وعادوا إلىٰ المدينة يرفرف الإيمان فوق رءوسهم وأنزل الله علىٰ رسوله ﷺ سورة «الفتح» وهو في طريق عودته إلىٰ المدينة فقرأها عليهم وطابت نفوسهم لما سمعوها فقد بشرتهم السورة بنصر عزيز وبإظهار دين الإسلام علىٰ الدين كله .

كما أن مقدمة سورة الحجرات تذكرنا بالمقدمة التي افتتحت بها سورة الممتحنة وهي قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ** ﴾ [الممتحنة : ١] فهي أيضًا بدأت بنداء

اللَّه لعباده المؤمنين ثم تلا ذلك نهي عن اتخاذ الكفار أولياء من دون اللَّه . وهذا النهي الذي بدئت به سورة «الممتحنة» يتعلق أيضًا بقصة وقعت أحداثها قبل فتح مكة ، وهي قصة الصحابي الكريم حاطب بن أبي بلتعة رضي اللَّه عنه ، وجاءت أيضًا آيات سورة «الممتحنة» لتعقب على هذا الحدث ولتعطي المؤمنين دروسًا هم في أمسّ الحاجة إليها .

وهكذا تتشابه مقدمة سورة «الحجرات» مع مقدمة سورة «الممتحنة» في أن كليهما بدأت بنداء المؤمنين يتلوه نهي عن أمر معين وهو في سورة «الحجرات» ألا يقدموا بين يدي اللَّه ورسوله كما حدث من الصحابة في غزوة الحديبية ، والنهي في سورة الممتحنة ألا يتخذوا الكفار أولياء من دون اللَّه عزَّ وجلَّ كما حدث من حاطب بن أبي بلتعة رضي اللَّه عنه .

فكلا النهيين يتعلق بحدث له علاقة بغزوة من غزوات النبي ﷺ ، بل بفتح من الفتوحات النبوية ، فسورة «الحجرات» تتعلق بفتح الحديبية الذي سماه اللَّه فتحًا كما في قوله عزَّ وجلَّ في أول سورة الفتح : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا** ﴾ [الفتح : ١] وسورة الممتحنة تتعلق بفتح مكة الذي سماه اللَّه كذلك فتحًا وذلك في أول سورة النصر في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [النصر : ١] .

ولكن فتح الحديبية هو الذي مهّد لفتح مكة ، ولذلك نجد سورة «الحجرات» تأتي في ترتيب المصحف الشريف قبل سورة «الممتحنة» ، فسورة «الحجرات» في الجزء السادس والعشرين (٢٦) ، وسورة «الممتحنة» في الجزء الثامن والعشرين (٢٨) . وكأن الرقم الأول في الجزء (٢٦) يشير إلى سنة غزوة الحديبية وهي السنة السادسة من الهجرة النبوية ، والرقم ٨ في الجزء (٢٨) يشير إلى سنة فتح مكة ، وهو العام الثامن من الهجرة النبوية الشريفة .

كما أن سورة «الفتح» قد وصفت الصحابة بصفات عظيمة في آخر آية منها ، فكان لابد من تحذيرهم في سورة «الحجرات» وذلك ليحافظوا على تلك المكانة العظيمة التي اكتسبوها ولئلا يفعلوا ما يوجب انحطاطهم عن هذه الدرجة الرفيعة التي بلغوها وهذا

يقتضي وضع معايير وضوابط تنظم التعامل بين المسلمين وتجعل العلاقة بينهم تقوم على الأخوة الإيمانية وتؤسس على التقوى.

وكان أيضًا لابد من تبيين الأمور التي ينبغي مراعاتها كالتبين من خبر الفاسق لئلا يدب بينهم الخلاف وتحدث بينهم الفرقة، وقد بينت لهم آيات سورة «الحجرات» ما ينبغي عليهم اتباعه إذا حدث الاقتتال بين المؤمنين وبينت لهم أيضًا ما ينبغي عليهم اتقاؤه: كالسخرية والتنابز بالألقاب واللمز وسوء الظن والتجسس والغيبة أي: ينبغي عليهم كف الأذى عن الناس بل وإيصال الخير والنفع إليهم فقد خلق الله الناس وجعلهم شعوبًا وقبائل للتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وللتعارف والتكافل لا التقاتل والتنابز وغير ذلك مما تكفلت سورة «الحجرات» بإرساء أسسه وقواعده وانظر في ذلك إلى قوله عز وجل في سورة «الحجرات»: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ فالإكرام لمن يتقي الله ويكف عن الناس أذاه. فالمتقي حقًا الذي يتوقى الوقوع فيما يغضب الله عز وجل والذي يحذر أن يكون متلبسًا بأي صورة من صور التقدم بين يدي الله ورسوله.

وهكذا رأينا الترابط بين لفظتي «التقدم» و«التقوى» ففيهما تجسيد للمعنى وإخراج للكلام من صفة التجريد إلى مجال التمثيل والتصوير مع أن الآية الأولى من السورة والتي ورد فيها اللفظان هي آية تشريعية مهمتها في المقام الأول تقرير الأحكام القطعية ولكنها فضلاً عن ذلك أدت مهمتها بأسلوب آخاذ فيه متعة للنفس وبهجة للحواس وذلك بخلاف النصوص القانونية التي يضعها البشر وينفر منها الناس لما فيها من الجمود والجفاف، وهذا هو السر وراء إعجاز القرآن فهو كما قال رب العالمين في وصفه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود: ١]

فهذه آيات الله التي تشع بالنور والهداية والتي ينبغي أن نحترم أحكامها وأن نجعلها محورًا تقوم عليه حياتنا، لا أن نتحاكم إلى غير شرع الله وهو من أخطر صور التقدم التي نهانا الله عنها وورد هذا النهي في مطلع سورة الحجرات وفي أول آية

منهـا وذلك في قـوله عـز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾.

ثم أكد ذلك النهي بالأمر بالتقوىٰ التي هي جماع الخير وسياج الأمن وذلك في قوله عز وجل: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ وذلك؛ لأن التقوىٰ محلها القلب ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فاحذروا اطلاعه علىٰ ما في قلوبكم أو ما أضمرتموه في نفوسكم فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولذا ختم الآية بقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] .

قل يُسمع لقولك

هذا هو النداء الثاني في السورة: ونلاحظ أنه جاء عقب النداء الأول مباشرة أي: لم تفصل بينهما آية أو آيتان كما هو الحال في النداءات الأخرى في السورة وقد يظن البعض أنه كان يمكن الاكتفاء بالنداء الأول أي: بعد أن قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾وهو النداء الأول في السورة، كان يمكن أن يقول بعده في الآية التالية: (ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) وذلك بعد أن يتم حذف النداء وهو قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾منعًا للتكرار، كأن تنادي شخصًا مثلاً فتقول: يا عثمان حافظ على صلاتك، يا عثمان اخشع في أدائها. وكان يمكنك أن تقول له: يا عثمان حافظ على صلاتك واخشع في أدائها، ولكن إنما كان تكرار النداء للدلالة على استقلال الأمر الذي تناديه من أجله ولبيان أهميته وأنه أمر خطير لا ينبغي أن نغفل عنه بل ينبغي الانتباه إليه و أخذه مأخذ الجد والاهتمام لا مأخذ التهاون واللامبالاة، فالأمر في النداء الثاني لا يقل أهمية عن الأمر في النداء الأول .

فالنداء الأول: كان النهي فيه عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ فهو مجمل وعام . أما النهي في النداء الثاني: فهو خاص بالرسول ﷺ وللتحذير من رفع الصوت فوق صوته، فقد أراد الله عز وجل أن يلفت أنظارنا إلى أن الأمر الخاص

بالرسول ﷺ وحده مساوٍ في أهميته للأمر الخاص بالله عز وجل فهو لا يتكلم باسمه بل يبلغ عن ربه، وهو لا يتكلم من تلقاء نفسه بل هو وحي يوحى إليه من ربه، فطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠].

كما أنه قال: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ [التغابن: ١٢] فقرن طاعة الرسول ﷺ بطاعته عز وجل فإنه قال أيضًا: ﴿**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٦] فجاء بطاعته ﷺ بدون اقتران بل على جهة الاستقلال وذلك ليبين لنا أن ما انفردت به السنة الشريفة من أحكام ينبغي أن توضع على العين والرأس وأن تكون في محل التوقير والاحترام وأن نعمل بها كالأحكام التي جاءت في القرآن سواء بسواء.

فقد استقلت السنة الشريفة ببيان بعض الأحكام التي لم ترد في القرآن فبينت وفصلت ما أجمل في القرآن كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولكن لم تبين لنا الآيات كم عدد ركعات كل صلاة أو المقدار الواجب إخراجه في زكاة المال أو زكاة الأنعام؟ بل السنة هي التي أوضحت لنا ذلك.

كما أن القرآن قد حرَّم علينا الزواج من العمات والخالات كما ورد في سورة النساء ولكن السنة بينت لنا حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو بين المرأة خالتها. فالرسول ﷺ له حق التحريم أيضًا كما في قوله عز وجل: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ [التوبة: ٢٩].

وقد حذرنا الرسول ﷺ أن نفرق بين الكتاب والسنة ففي الحديث الشريف الذي رواه أبو داود: «**يوشك الرجل أن يأتيه الأمر من سنتي وهو شبعان متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا إن ما حرم رسول الله كما حرم الله فقد أوتيت الكتاب ومثله معه**» أي: السنة.

وإنا لنسمع بعض الآراء تخرج علينا من وقت لآخر تطالب بالاكتفاء بما في القرآن

من أحكام وعدم الأخذ بما ورد في السنة الشريفة وهم يخفون غرضهم الخبيث الذي يضمرونه في نفوسهم وهو القضاء على الكتاب والسنة معًا.

ولو خلصت نيتهم في الاكتفاء بما ورد في القرآن لأخذوا بأحكام السنة أيضًا فقد أمرنا الله بذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. وانظر إلى الوعيد الشديد الذي ختمت به الآية لمن تسول له نفسه أن يستهين بسنة النبي ﷺ، وانظر أيضًا إلى قوله عز وجل: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والآيات في هذا الصدد كثيرة وكلها تجمع على أن طاعته ﷺ أمر واجب وأن اتباعه حتم لازم فالسنة النبوية الشريفة لايمكن الاستغناء عنها أو الاكتفاء بالقرآن بدلاً منها فهي الشارحة لكتاب الله والمفسرة له والمبينة لما أبهم فيه والمفصلة لما أجمل منه. وليس هذا مجال إثبات ذلك، والمؤمن الحق يعرف ذلك تمامًا ويسلم به دون أدنى ارتياب ولا يفرق أبدًا بين الكتاب والسنة بل إنه كما يحب كتاب ربه عز وجل فهو يحب سنة نبيه ﷺ طالما صحت نسبتها إلى رسول الله ﷺ.

وقد قيض الله للسنة الشريفة رجالاً أفذاذًا وعلماء ربانيين جعلوا حياتهم وقفًا على خدمة السنة فقاموا بجمع أحاديثها ومحَّصوها ونفوا الدخيل والضعيف عنها وبينوا الموضوع والمدسوس فيها وفق معايير علمية دقيقة تجدها في كتب الجرح والتعديل فحفظ الله بذلك سنة نبيه ﷺ كما حفظ كتابه الكريم من التبديل والتحريف.

ووالله إني لأقف على كتب الحديث كالصحاح والسنن والمسانيد وأقرأ ما فيها من الأحاديث وأتدبر معانيها وأرى أنوار الوحي تشرق من بين ألفاظها الشريفة وأقف طويلاً أمام كثرة الفوائد التي استنبطها العلماء من أحاديث الرسول ﷺ ولا عجب في ذلك فقد أوتي جوامع الكلم وذُللت له ينابيع الحكمة يقتطف منها مايشاء فأقف مبهورًا أمام ذلك كله كما أقف أمام عظمة القرآن وما استخرجه المفسرون من دروس

مفيدة من آياته الكريمة وأتذكر قول النجاشي حينما سمع جعفر بن أبي طالب وهو يتلو عليه آيات من صدر سورة «مريم» فتأثر بها وبكى وقال: «إن هذا الذي تقول والذي جاء به عيسى ابن مريم ليخرجان من مشكاة واحدة» فأقول: إن الكتاب الحكيم والسنة الشريفة لينبعان من معين واحد فالسنة وحي ثانٍ وذلك بنص القرآن، يقول عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣،٤].

وقد نهاهم الله عز وجل عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ أثناء كلامهم معه ولكن قد يظن البعض أن رفع الصوت هو الممنوع وأنه قد يجوز أن يكون صوتهم مساويًا لصوته ﷺ ولدفع هذا الظن قال عز وجل بعدها: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾. أي: لاتخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضًا بل ينبغي أن تكون نبرة الصوت عند خطابه أقل من نبرة صوته ﷺ ولذلك لم يكتف بقوله: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ بل قال بعدها: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾

فأنت حينما تخاطب شخصًا فإنك لا تُسِر له القول بل تجهر له به حتى يسمع قولك. فالجهر بالصوت أمر لابد منه فالمقصود بالجهر بالقول هو الجهر بالصوت المسموع أثناء الكلام أو المحادثة التي تتم بين طرفين. ولكن المحظور هو أن يكون جهرهم بالصوت كجهر أحدهم حينما يخاطب من يساويه في المكانة، ففي هذا الجهر إساءة أدب بالنسبة إلى مقامه الكريم وهو أيضًا خلاف التعظيم والتوقير اللائقين بمكانته السامية وجنابه الرفيع عند رب العالمين، يقول عز وجل: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

كما ينسحب هذا الأدب إلى سنته ﷺ وشريعته والتي لا ينبغي مخالفتها أو ترك العمل بأحكامها بل ينبغي اقتفاء أثرها والسير على هديها حتى لا تتفرق بنا السبل أو تلعب بنا الأهواء. بل وينبغي أيضًا عدم رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم فهم ورثة الأنبياء كما ينبغي أن يراعى هذا الأدب الرفيع عند مخاطبة الوالدين ومَنْ لهم علينا حق التوقير كالمعلمين والمربين .

إنك أنت الأعلى

كما أن النهي ليس منصبًا فقط على رفع الصوت أو الجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض ولكن المقصود من النهي ألا يخالفوه بقول أو فعل فيما أمر به أو نهى عنه. فإذا تكلم فليسمعوا قوله وليتبعوا أمره ولذلك قال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ولم يقل (فوق صوت الرسول) كما ذكر في الآية السابقة التي افتتحت بها السورة فقد ذكر فيها الرسول؛ لأنه ذكر قبله لفظ الجلالة «الله» فقال: ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فالله هو الذي أرسله ثم في الآية الثانية ذَكَّرهم بحقيقة النبوة وأنها تأتي على جهة الاستقلال فهذا الرسول نبي أي: يأتيه نبأ السماء ويتنزل عليه الوحي من الله فينبغي أن تسمعوا له ولا تعكسوا الوضع بأن تجعلوه هو الذي يسمع لكم أو تحملوه على أن يتنزل على رأيكم وذلك لأن أصواتكم أعلى وأكثر وصوته أخفض وأضعف فليست القضية بالعدد أو الكثرة. فالأمر ليس غوغائية أو قضية أغلبية أو بأكثرية الأصوات بل هو نص لا يصلح معه اجتهاد أو أن نعمل فيه الآراء فهو نبأ يأتيه من السماء ووحي يوحى إلى خاتم الأنبياء ينبغي الانصياع له في الحال دون أدنى تردد أو اعتراض أو جدال.

ولذلك قال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وكان يمكن أن يقول: (لا ترفعوا صوتكم) بالإفراد فالمصادر يمكن أن تأتي بصيغة الإفراد أيضًا ولكنها جاءت جمعًا ﴿أَصْوَاتَكُمْ﴾ في مقابل ﴿صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وحده لبيان أنه وإن كان صوته صوت واحد إلا أنه ليس كأحدكم. ولذلك قال: ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ولم يقل (فوق صوته) فهو «نبي» موصول بربه يأتيه أمين الوحي بالأنباء والآيات البينات من فوق سبع سموات فهو بشر مثلكم ولكنه يتنزل عليه الوحي من بينكم كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فهذا الذي يميزه عنكم، فكفته هي الراجحة وكلمته هي الفاصلة وإياكم أن تغيب عنكم تلك الحقيقة فتصيبكم

مشقة شديدة، فلو أنه ترك مصلحة المسلمين في عقد صلح الحديبية مع قريش وأطاع أهواءكم ونزل على رأيكم أو اتبع عقولكم القاصرة أو أخذ بنظرتكم الضيقة في معالجة الأمور فهذا ليس من مصلحتكم بل فيه عنت كبير لكم .

ولذلك ذَكَّرهم بهذه الحقيقة مرة أخرى في نفس السورة فقال عز وجل : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** ﴾ [الحجرات: ٧] وقال بعد ذلك : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾ [الحجرات: ٧] ، فمقتضى الإيمان الطاعة والالتزام وأن يعين صاحبه على الاتباع والالتزام التام . فطالما أنه آمن بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيًا فلا ينبغي له أن يتردد أو يرتاب بعد ذلك ولهذا قال عز وجل في خواتيم هذه السورة: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات: ١٥] .

فإذا جاءكم النبي بالنبأ من السماء أو بالوحي من الله فقولوا: سمعنا وأطعنا ولا تقولوا: سمعنا وعصينا وإياكم أن تجعلوا صوته يضيع بينكم أو يختفي في زحمة أصواتكم بل ينبغي أن يكون صوته هو الأعلى وأن تكون كلمته هي العليا فهي كلمة الله وهو رسول الله الذي يعلم من الله ما لا تعلمون .

وانظر إلى الوعيد الشديد الذي ختمت به الآية﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ .

فحذرهم من رفع الصوت فوق صوته خشية أن يؤدي ذلك إلى حبوط أعمالهم وهم لايشعرون أنها قد أحبطت أو وهم لا يشعرون أن سبب حبوطها هو رفع الصوت في مجلسه الشريف .

ولعلك تعجب أن مجرد رفع الصوت قد يؤدي إلى حبوط الأعمال وبطلان الثواب وضياع الجزاء ولا سيما أن حبوط الأعمال في معظم الآيات التي ورد فيها في القرآن إنما يكون بسبب الكفر والنفاق والإشراك بالله فهو يأتي في حق من كفر وَكَذَّبَ بآيات الله ولا يأتي في حق المؤمنين ، كقوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ**

عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٤٧] وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩] وغير ذلك من الآيات كثير.

ولكن هذه هي الآية الوحيدة في القرآن التي يأتي فيها حبوط العمل في حق المؤمنين وليس في حق المشركين أو الكافرين أو المنافقين، وبسبب رفع الصوت فوق صوته الشريف، وإنما ذلك لبيان خطورة ذلك الأمر حتى جعله الله مساويًا لجريمة الشرك بالله عز وجل وما ذلك إلا لأنه مَنْ يرفع صوته فوق صوت النبي الذي يأتيه الوحي من الله عز وجل فكأنما يرد على الله أمره ويرضى بحكم غير حكمه ويثق في عقله ورأيه أكثر من ثقته وإيمانه بشرع ربه الذي أوحى به إلى نبيه ﷺ فهو عندئذٍ إنما يعبد هواه لا مولاه فقد جعل نفسه ندًا لله وهذا هو عين الإشراك بالله والكفر به.

وهذا هو ديدن الكافرين فهم كانوا يرفعون أصواتهم إذا سمعوا رسول الله ﷺ يجهر بالقرآن وماذلك إلا ليشوشوا على قراءته ويصرفوا الناس عن الاستماع إليه بهذا الأسلوب المُسِفّ في الغوغائية والذي لا يمكن أن يتصف به الإنسان العاقل الذي كرمه ربه، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فقد كانوا يظنون أن الغلبة على هذا الدين برفع الصوت بالنعيق ولذلك يقال في الأمثال: «خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم» ومن أجل هذا وصفهم الله بقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فنفى عنهم العقل وشبههم بالأنعام بل هم أضل فإنما هم حناجر ناعقة وأصوات زاعقة وليست عقولاً واعية

ولذلك أنكر الله عليهم ذلك وربأ بالمؤمنين أن يكونوا كذلك أي : أن ينزلوا إلى مستوى الحيوان البهيم فقال عز من قائل : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] .

ومن ثم فمخالفة الرسول ﷺ تساوي «مشاقته» بتعبير القرآن الكريم وذلك بأن يجعل المخالف نفسه في الشق أو الجانب الذي يضاد أو يخالف شق الرسول ﷺ وجانبه فكأنه انسلخ من معسكر الإيمان وانضم إلى معسكر الكفر والصد عن سبيل الله ولذلك يقول عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] .

فلا يليق ـ والحال هذه ـ بالمؤمن الذي تبين له الهدى أن يأتي بمخالفة يشق بها على الرسول ﷺ لأن المخالف لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئًا ولكن الرسول ﷺ يعز عليه ذلك ويشق عليه أن يرى أتباعه المؤمنين يصيبهم العنت أو المشقة بمخالفة أمره فهو كما وصفه ربه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

ولذلك فهو في صلح الحديبية لم يكترث بمعارضتهم له وأمضى وحي ربه لأنه لو أطاعهم فيما تميل إليه نفوسهم لضاعت عليهم فرصة الخير ولأصابهم العنت كما قال عز وجل في «سورة الحجرات» ـ معقبًا على أحداث صلح الحديبية : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] .

وقد بين الله لنا أيضًا مغبة المخالفة للرسول ﷺ كما في قوله عز وجل : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] .

إذن فقد برح الخفاء وأسفرت الحقيقة ناصعة بيضاء ، وظهرت خطورة القضية فهي إنما تتعلق بمخالفة شرع الله الذي جاء به نبيه الكريم ﷺ وليست فقط قضية رفع

الصوت ، فقد يخالف المرء ما جاء به الكتاب والسنة دون أن يرفع صوته أو يتفوه بكلمة ولكن بمجرد رفضه القلبي وعصيانه الفعلي وإصراره على مخالفة أحكام القرآن وسنة النبي ﷺ .

فلا ينبغي لنا ـ نحن المسلمين ـ الذين رضينا بالله ربًا وآمنا بمحمد رسولاً ونبيًا وبالإسلام دينًا أن نُلْقي بأحكامه وراء ظهورنا وأن نحتكم إلى غير شرع ربنا كدول الغرب التي شرعت لنفسها فأباح بعضها الشذوذ الجنسي بالقوانين الوضعية وبرأي الأغلبية بعد أن انسلخوا من تعاليم الدين وتنكبوا الصراط المستقيم وابتعدوا عن وحي السماء فَحُرِموا السعادة وفقدوا طمأنينة النفس وعاشوا في مشقة وعنت . فلا ينبغي لنا أن نقلدهم في هذا الأمر بل نتمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا ﷺ حتى نسعد في دنيانا ونكون في الآخرة من الفائزين المقبولين .

❊ ❊ ❊

الأمور بخواتيمها

والآن وقبل أن نترك هذه الآية الكريمة فإنه يجدر بنا أن نقف وقفة متأنية حول ما ختمت به وهو قوله : ﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ والحبوط لغة الانتفاخ والورم كأن تكثر الدابة من الأكل حتى ينتفخ بطنها فتهلك ، فالدابة يراها المرء عندئذ فيظن أنها سمينة ومتينة ولكنها في حقيقة الأمر متورمة وضعيفة . وقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى فقال : «**إن هذا المال خضرة حلوة، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يُلم**» وهو جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه يضرب لنا فيه الرسول ﷺ مثلاً لتحذيرنا من البخل . فالإنسان الذي يجمع المال ولكن يمنعه عن وجوه الخير وهو يحسب أنه يحسن صنعًا فهو ممتلئ مالاً ولكنه بخيل يقتل نفسه ويهلكها بحرصه الشديد .

وانظر إلى حسن التناسب وإلى الدقة في اختيار الكلمات في الآية ، فكلمة الحبوط

التي تعني انتفاخ وورم البطن تتماشى مع معنى الجهر ورفع نبرة الصوت عند رسول اللَّه ﷺ، فكلاهما يفضي بصاحبه إلى الهلاك وإلى ضياع الأعمال.

وأما قوله: ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ يبين لنا قضية غاية في الأهمية ينبغي أن ننتبه إليها ونحذر منها، وخواتيم الآية معناها أي وأنتم لا تشعرون أنها أحبطت.

فإن من أعظم الأمراض خطرًا ذلك المرض الذي لا يشعر به المريض؛ لأنه لن يبادر إلى علاجه ولن يحاول الإقلاع أو الابتعاد عما يسبب له المرض بل تراه يعيش حياته بصورة طبيعية دون خوف أو حذر كأنه سليم أو معافى بينما حالته تزداد كل يوم سوءًا وهو لا يشعر بذلك بل يظن أنه في أتم صحة وأحسن حال.

وكذلك فالمذنب الذي لايشعر بذنبه المتورط فيه فإنه يظل مقيمًا عليه وهو لا يدري أنه يرتكب ذنبًا يستحق أو يستوجب به العقاب ويغضب به مولاه فهو كمن يسير في طريق يفضي به إلى عذاب النار وهو يحسب أنه يسلك سبيل النجاة كما في قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ومما يجعل المرء أيضًا لايشعر بخطورة مخالفة أوامر الدين أن النفس تزين لصاحبها بعض السيئات فيراها كأنها حسنات كما في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. وكذلك لا ينبغي إغفال دَوْر الشيطان في إضلال العباد وتهوين أمر المعصية في أعينهم حتى يقعوا فيها وهو ما أشار إليه القرآن في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقوله أيضًا في الشياطين: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

ولذلك عندما نحلل نفسية المذنب الذي يرتكب المعاصي فإننا نراه حينما يقترف المعصية في المرة الأولى فإنه يأسف ويندم على ما فعل، فإذا فعل السيئة مرة ثانية خف الأسف والندم فإذا ما تكرر منه فعل المعصية حتى صار عادة تألفها النفس فإنه

يزول ما في المعصية من قبح ويقل انتباه الإنسان إلى آثارها السيئة فيجره ذلك إلى عدم المبالاة وقلة الاحتراس ثم التورط في أمور لم تكن تخطر له على بال ثم لا يستطيع أن ينفك عنها بحال بل تظل تلازمه حتى الممات والعياذ بالله .

فالعادة تتمكن من النفس شيئًا فشيئًا بحيث لا يشعر بها الإنسان إلا بعد أن يصبح خاضعًا لسلطانها وعبداً مطيعًا لها وهو أمر مشاهد وملموس فنحن نرى من ارتكب ذنبًا لأول مرة ولم يكن قد ارتكبه من قبل فإنه يكون خائفًاغاية الخوف ونادمًا كل الندم ويلوم نفسه على ما فعل ، فإذا ما ارتكبه مراراً وتكراراً فإنه يقل خوفه وندمه ولومه لنفسه ، فالعادة تجعل الإنسان غافلاً عما في المعصية من قبح وسوء . فإن لم يصن المرء نفسه من أول الأمر عن ارتكاب السيئات وقبائح الأعمال فإنه سيقع بعد اعتياده لها وتمكنها منه في شرورها التي تدهمه بحكم الاستخفاف بارتكابها وإن كان في أول الأمر محترسًا ومشفقًا ومنكراً لها .

* * *

الحاجز النفسي

وهكذا رأينا كيف أن الذنوب لها في النفوس حرمة ورهبة وهيبة تجعل الناس يشعرون بالحرج عند الاقتراب من حماها واقتحام حرماتها . وانظر إلى القاتل حينما يَقْتلُ أول مرة كيف يتردد في ذلك ويقدم قدمًا ويؤخر أخرى وترى السكين تهتز في يده ولكن إذا ما تغلب على تردده وشعوره هذا وأقدم على القتل هان عليه سفك الدماء بعد ذلك وأصبح عنده قتل الإنسان كأنه يقتل حشرة من الحشرات بل تراه بعد هذا الفعل الشنيع لا يشعر بندم أو بتعذيب الضمير .

وكذلك المرأة التي تقدم على فعل الفاحشة أول مرة فإنها تغالب حياءها وترى العرق يتصبب من جبينها وتكاد تسمع ضربات قلبها ، وتختفي عن العيون وتستتر تحت ظلام الليل وتتلفت حولها هل يراها من أحد؟ وتشعر بالأسف والندم ولكنها

كلما كررت المحاولة مرة أخرىٰ كلما خف عنها هذا الأسف وقَلَّ شعورها بالندم ثم ينتهي بها المطاف إلىٰ أنها تقترف الفواحش والمعاصي دون أن تكترث أو تبالي .

ولكن ما الذي يمنعها في أول الأمر من ارتكاب الفاحشة ويجعلها تبكي بحرقة ، فليس هناك من يراها من الناس وليس هناك حائل مادي يحول دون اقترافها للزنا؟ ولكن هناك حائل من نوع آخر وهو ما يسمىٰ بالحائل النفسي أو الحاجز الداخلي الذي أودعه الله في قلوب العباد ؛ ليصدهم عن اقتراف الذنوب والآثام .

وقد صور لنا الرسول ﷺ هذا المعنىٰ في حديث الكفل الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما أن الكفل من بني إسرائيل كان لا يتورع عن ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً علىٰ أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال : ما يبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وتخافين الله وأنا ما خفته ، اذهبي فالمال لك وقال : والله لا أعصىٰ الله بعد هذا أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً علىٰ بابه : « إن الله قد غفر للكفل » .

فهي عللت بكاءها وانتفاضة جسدها بأنها لم تفعل ذلك من قبل مما يدل علىٰ أن للذنوب حرمة جعلها الله في النفوس تصدها عن اقتراف السيئات بحيث من أراد أن يعصي الله أول مرة فإنه يتوقف ويتردد ويراجع نفسه ولذا نرىٰ الإنسان صاحب الفطرة السليمة يخشىٰ أن يهتك ستر الدين أو أن يشق عصا الطاعة .

ولكن إذا أصر العبد علىٰ الذنب فإنه لا يشعر بقبح الإثم بعد ذلك ولذلك فعلىٰ المرء أن يصون نفسه من أول الأمر عن فعل ما حرم الله عز وجل ؛ لأنه إذا أقدم علىٰ المعصية زَلَّت قدمه وسار في طريق الرذيلة رغماً عنه ، فعليه أن يبتعد عن الذنوب بل وأن يجعل بينه وبينها مسافة مأمونة لئلا يندم يوم القيامة ويكون حاله كمن قال الله فيه يوم القيامة : ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ففي الحديث النبوي الذي رواه أحمد في «مسنده» أن الله ضرب مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلىٰ جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وعلىٰ باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعوجوا، وداعٍ آخر يدعو من داخل الصراط فإذا أراد أن يفتح بابًا من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه، والصراط هو الإسلام والسوران هما حدود الله والأبواب المفتحة هي محارم الله، وذلك الداعي علىٰ الصراط هو كتاب الله، والداعي من داخل الصراط هو واعظ الله في قلب كل مسلم.

فإياك أن ترفع الستار أو تفتح الباب فإنك سترىٰ من الشهوات ما لا تستطيع عليه صبرًا، بل امض في طريقك ولا تلتفت حتىٰ تصل إلىٰ غايتك، واستقم واحذر الانحراف فالطرق ملتوية ومتشعبة ومظلمة تسلم سالكها إلىٰ التيه والضلال إلا طريق الإسلام فهو واضح مستقيم لا غموض فيه أو التباس.

وفي حديث «المسند» أيضًا أن رسول الله ﷺ خط خطًا ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخط عن يمينه وشماله خطوطًا ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا على رأسه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فإياك أن تشغل نفسك برفع الستار لترىٰ ما وراءه مما حجب عنك فإنما مُنِعْت من ذلك لمصلحتك، فهذه الأبواب محارم الله التي لا ينبغي أن تقتحم، والستور علىٰ الأبواب هي كل ما يحجزك عن الحرام من دين ومروءة وعقل وحياء وعفاف وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

والواعظ هو القلب الذي ينذر صاحبه بالخطر إذا حاد عن الصراط أو هو الضمير الحي الذي يمنع صاحبه من ارتكاب الذنوب والسيئات. فمن البداية اترك الباب مغلقًا وخل الستور مرخاة وإياك أن تزيحها؛ لأنك إذا فتحت الباب ونظرت لدخلت وتوغلت وفعلت ما لا يحل لك وسيطيب لك المقام وتحلو لك المعاصي وتألفها عيناك حتىٰ إذا أردت أو حاولت أن تتركها بعد ذلك عز ذلك عليك وقد تظل أسيرًا

لها إلى نهاية العمر إلا من رحم الله . فكن كجريج العابد الذي تعرضت له بغيٌّ بني إسرائيل لتفتنه لكنه من البداية لم يعرها أدنى اهتمام ولم يلتفت إليها على الإطلاق ولذا أنجاه الله مما عرض له من البلاء .

وشبيه بذلك الحديث الذي رواه الشيخان «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومَن وقع فيها فقد وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألاَ إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» .

وقد شبه النبي ﷺ محارم الله التي يحرم غشيانها بمحمية مملوكة لأحد الملوك وهي أرض لها حرمة وحدود لا ينبغي لأحد أن يغشاها أو يحوم حولها فهي كمنطقة عسكرية ممنوع الاقتراب منها أو التصوير ولكن حوْلها منطقة مباحة إياك أن تدخلها لئلا تقع في الحرام وتنحرف عن الصراط فإذا جاء الراعي وترك غنمه ترعى حولها فقد تتفلّت منه شاة أو شاتان هنا أو هناك حتى إذا أراد جمعها آخر النهار فإنه لا يستطيع لأنه لم يقف من البداية عند ما حدَّ له من الحدود وقد تدخل بعض الغنم إلى داخل المحمية فيعرض نفسه لغضب الملك وعقابه .

وكذلك يغضب الله ويغار إذا ما انتُهك حماه ، وحِمى الله محارمه وكل ما حرم من المعاصي والآثام فإياك والجرأة على حرمات الله وإياك والاستهانة بالصغائر فإنها إنما تفضي إلى ارتكاب الكبائر وحافظ على قلبك نقيًا ولا تلوثه بالذنوب والمعاصي فقلب الإنسان هو خط الدفاع الأول الذي يمنع صاحبه من فعل ماحرم الله كما في خاتمة الحديث « **ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** ».

ومِن ثمَّ فالعاقل ينبغي عليه أن يراقب نفسه ويصونها من البداية وأن يكون واعيًا لعواقب تصرفاته فقد يكون ارتكاب المعاصي داعيًا إلى استمرائها والاسترسال فيها

فتكثر سيئاته وتحبط أعماله من حيث لا يشعر ففي الحديث المتفق عليه: « **إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب** » . وأيضًا حديث مالك في «الموطأ» والترمذي في «سننه»: «**إن العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها من سخطه إلى يوم يلقاه** » .

* * *

النهي أقوى من الأمر

ولذلك فلنقف بعض الشيء مع الحديث المتفق عليه: « **ما أمرتكم به من شيء فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه** » .فالنهي أشد خطورة من الأمر لأن النهي لم يرخص بارتكاب شيء منه بينما الأمر قيد بحسب الاستطاعة: «**فأتوا منه ما استطعتم** » وفي النهي قال: « **فاجتنبوه** » .

ولذلك يقول عز وجل: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦] فقيد الأمر في الآية بتقوى الله والخشية منه بالاستطاعة ، فالخوف من الله لا يستوي فيه كل الناس. وتقوى الله وخشيته لها درجات وفي الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ قال: «**أنا أتقاكم لله وأخشاكم له** ».

وكذلك قوله عز وجل: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧] فالحج يشترط فيه القدرة والاستطاعة سواء أكانت مالية أم بدنية وهو أمر يتفاوت فيه الناس أيضًا ومن ثم لا يمكن أن نلزم به كل المكلفين وفي هذا تيسير ورحمة ورفع للحرج والمشقة عن العباد .

أما النهي فلم يقل فيه: (فاجتنبوا منه ما استطعتم) بل قال: « **فاجتنبوه**» أي كله وليس بعضه فمثلاً: قد نهانا الشارع عن القتل بأسلوب قاطع فقال: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الانعام ١٥١]. ولم يقل: (اتركوا القتل ما استطعتم) وكذلك لم يقل: (اتركوا الزنا ما استطعتم) بل إنه حرم كل مقدمات الزنا ودواعيه

كالنظرة فأمرنا بغض البصر وحرم على المرأة السفوروالتبرج وكل ما فيه فتنة للرجال واستثارة للشهوات كما أنه حرم أن يخلو الرجل بامرأة لا تحل له لأن هذا مما يفضي إلى الزنا ومن المعلوم أن كل ما أفضى إلى حرام فهو حرام فالوسيلة التي تؤدي إلى غاية محرمة فهي أيضًا تأخذ حكم هذه الغاية فتكون باطلة ومحرمة ومن هنا يظهر بطلان قول من قال : الغاية تبرر الوسيلة .

فالنهي إذن بخلاف الأمر لا ينبغي أن نترك بعضه ونأتي بعضه بل ينبغي اجتنابه كله ولذا قال عز من قائل : **﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾** [الإسراء: ٣٢]. وقال : **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[الإسراء: ٣٤] .

فمجرد الاقتراب ممنوع ومحظور ومن هنا نُهينا عن الاقتراب من الشبهات استبراء للدين والعرض فالإقدام على الشبهات يجر إلى الوقوع في المحرمات ولذلك فالنهي ينبغي تركه بالكلية ولاينبغي تجزئته إذ ليس فيه ما لا يستطاع فربُّنا عز وجل لم يحرم علينا أو ينهنا عن ترك الضرورات أو الطيبات التي تقوم عليها وتستمر بها الحياة : كالطعام والشراب والنكاح يقول عز وجل **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾**[الأعراف: ٣٢] .

وإنما نهانا ربنا عن ترك المحرمات والخبائث والمضار مما في وسعنا تركه وفي استطاعتنا اجتنابه : كالقتل والزنا والربا وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم وشرب الخمر وعقوق الوالدين وإطلاق اللسان في الغيبة والنميمة وغير ذلك من الذنوب والمعاصي التي تقوض بنيان المجتمع وتفضي إلى عواقب وخيمة وأضرار جسيمة تصيب الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع في مقتل. قال عز وجل **﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٣] .

وفصل ما أجمل الحديث السابق في قوله عز وجل **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ**

إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أما «الأمر» فلم يقل: (فأتوه كله أو أتوه بشكل كامل غير منقوص) لأنها أمور يتفاوت فيها الناس كل حسب سعته وعلمه وإيمانه وتقواه كبِرّ الوالدين على سبيل المثال فهو أمر يتفاوت فيه الأبناء فهناك من يزور والديه الكبيرين مرة كل يوم وهناك من يفعل ذلك مرة في الأسبوع أو في كل شهر وكل حسب ظروفه وطاقته وكلهم يدخل في دائرة البر والإحسان.

وكذلك في الصلاة فبعد أن أمرنا الشارع الحكيم بإقامة الصلوات الخمس فإنه رغبنا في صلاة النفل وحثنا على التهجد وصلاة الليل فالناس يتباينون في هذا الشأن كل حسب استعداده وأشواق نفسه فهناك من يقوم ثلث الليل وهناك من يقوم نصفه أو ثلثيه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكذلك الأمر بالنسبة للصدقة فبعد إخراج الزكاة المفروضة فإنه يوجد مَن يكثر من الصدقات وينفق بالليل والنهار وهناك من يكتفي بدراهم معدودات وكذلك في الصيام فهناك من يصوم بعد رمضان يومي الخميس والإثنين من كل أسبوع وثلاثة أيام مَن كل شهر وهناك من يكتفي بصيام رمضان وبعض المناسبات: كصيام عرفات وعاشوراء، فالشارع بعد الفرض لا يحدد سقفًا معينًا بل يترك المجال مفتوحًا لإشباع حاجات النفوس التوّاقة نحو الخير والأرواح المنطلقة إلى المزيد.

❊ ❊ ❊

الطاعة على قدر الاستطاعة

كما أن الشارع وضع في الاعتبار أن النهي لا يشترط فيه العمل والإنشاء إذ هو مجرد ترك واجتناب وذلك بخلاف امتثال الأمر فإنه لا يحدث إلا بعمل وهذا العمل له شروطه وقد تكون هذه الشروط غير متيسرة أو متوفرة لدى الجميع في كل